دراسة التشابه فى الأغراض والأساليب بين سورتى : (المزمل) و(المدثر)

للدكتور

على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

دراسة التشابه فى الأغراض والأساليب بين سورتى (المزمل) و(المدثر)

للدكتور

على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل كتابه نورا يهدى به من يشاء من عباده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وبعد:

فقد وقعت فكرة هذا البحث فى عقلى وقلبى منذ سنين؛ إننى مشغول بدراسة تلك السور الأوائل التى نزلت فى بدايات الدعوة.

تلك البدايات الأولى لهذا النور الذى أنقذ الله به البشرية من الضياع وأخرجها من ظلام طال لبثها فيه، كيف كانت تلك الطريقة؟ ما المعانى التى قصدها القرآن؟ كيف كانت طريقة التعبير؟

وسورتا (المزمل) و(المدثر) من أوائل ما نزل من القرآن الكريم(١) فالحاجة ماسة إلى دراسة خصائصهما، والتشابه بينهما فى الأغراض وفى الأساليب وهذا البحث لم يأخذ حظه فى دراسة

---

(١) يراجع أول ما نزل من القرآن فى البرهان للزركشى جـ١ صـ٢٠٦ : ٢١٠ والإتقان للسيوطى جـ١ صـ٢٣ : ٢٨ ، وبصائر ذوى التمييز جـ١ صـ٩٨ ويراجع فتح البارى جـ١ صـ٣٠ : ٤١ وشرح صحيح مسلم جـ٢ صـ١٩٧ : ٢٠٩ .

البلاغيين الذين اشتغلوا بالبحث فى أسرار القرآن، فلم يفرده أحد ــ فيما أعلم ــ بالتأليف .

وقد قرأت فى أثناء جمع مادة هذا البحث كلاما طيبا ذكره الإمام البقاعى يبين أن هناك من اهتدى إلى وجود التشابه بين السورتين، قال ــ رحمه الله ــ : (وقال الإمام أبوجعفر بن الزبير: ملاءمتها (أى سورة المدثر) لسورة (المزمل) واضحة واستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه عليه الصلاة والسلام ، وعظيم تكريمه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] والأمر فيهما بما يخصه ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ﴾ [المزمل : ٢، ٣]وفى الأخرى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾[المدثر ٢، ٣] أتبعت فى الأولى بقوله : ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠] وفى الثانية بقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٧] وكل ذلك قصد واحد، وأتبع أمره بالصبر فى (المزمل) بتهديد الكفار ووعيدهم ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١] وكذلك فى الأخرى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ [المدثر: ١١] فالسورتان واردتان فى معرض واحد وقصد متحد)أ.هـ[(١)] وهذا الكلام الطيب يدعونا لنمضى فى طريقنا بخطى آمنة العثار ــ إن شاء الله ــ ، فعندما يجد الباحث أن فكرته ومنهجه من الأمور الثابتة والمقررة عند العلماء يشعر بالراحة والاطمئنان خاصة فى البحوث القرآنية التى يحذر المرء فيها من المخالفة أو التسرع فى الرأى .

---

(١) نظم الدرر جـ٨ صـ٢٢١ .

وليس منهج البحث فى التفسير والكشف عن دلالـــة كـــل مفردة فى الســـورتين ودراســـة ترتيـــب النـــزول أو الترتيـــب المصحفى؛ لأن هذه الأمور مدروسة ومستوفاة عند أئمة التفسير والمشتغلين بعلوم القرآن، إننى لم أقصد ذلك ،ولـــم أذكـــر فـــى عنوان البحث ما يدعو إليه، إن البحث موضـــوع فـــى دراســـة التشابه بين السورتين، والباحث يعلم أن هنـــاك فروقـــا دقيقـــة بينهما تجعل لكل سورة خصائصها فى البيان القرآنى، وهذا موضوع آخر أسأل الله سبحانه أن يعين على إنجازه وييسر أسبابه .

وأنا أهدف من وراء بحثى هذا أن يكون بداية فى طريـــق واسع وطويل تتبعه بحوث أخرى ممن كعبهم أعلـــى، وذوقهـــم أرقى .

وقد توخيت فى بحثى الإيجاز؛ لأن أئمة التفسير قدموا لنـــا زادا منيرا فى هذا الشأن بيد أن هناك بعض المواقع فى البحـــث أطنبت فيها؛ لإحساسى بحاجة المقام إلى ذلك .

وسيكون منهج البحث كما يلى:

أولا: حصر المقاصد العامة فى السورتين ودراسة التشابه فى الأساليب فيهما من خلال دراسة المعانى؛ للإفادة من السياق والمقام فى تحديد المقصود .

ثانيـا: الإفادة ــ أولا ــ مما قاله أئمة التفسير واللغويـــون والمشتغلون بعلوم القرآن، وإذا كان اجتهاد بعد ذلك فهو منضبط باتباع أئمة التفسير والاهتداء بسياق الكلام ومقامه .

ثالثـا: ذكر ما أمكن الاهتداء إليه من النتـــائج فـــى آخـــر البحث .

ونبدأ فى بحثنا، متوكلين على ربنا طالبين عونه وتوفيقه .

أولا: النداء بالوصف الخاص وتعقيبه بالأمر:

افتتح الله سبحانه سورة (المزمل) بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ١ ــ ٧] وقال فى مطلع سورة (المدثر): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ١ ــ ٦].

السورتان مفتتحتان بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ووقوع هذه الطريقة الأسلوبية فى مطلع السورتين فيه ما فيه من التوكيد والمبالغة لأهمية ما نادى الله رسوله (ﷺ) من أجله.

يقول العلامة جار الله الزمخشرى ــ رحمه الله ــ مبينا قيمة وبلاغة هذه الطريقة الأسلوبية: (و"أى" وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام كما أن (ذو) و(الذى) وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه فلابد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذى يعمل فيه حرف النداء هو (أى) والاسم التابع له صفته كقولك: يا زيد الظريف إلا أن (أيا) لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة، وفى هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين:

معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضا عما يستحقه (أى) من الإضافة فإن قلت: لم كثر فى كتاب

الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر فى غيره؟ قلت لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها)(١).

ويجمع المفسرون على أن (المزمل) و(المدثر) وصفان لحال النبى (ﷺ) فهو قد تزمل أى: التف بثوبه، وتدثر؛ أى لبس الدثار وهو الثوب الذى يلى الشعار، وقد قالوا بذلك استنادا إلى روايات صحيحة ذكرت أن النبى (ﷺ) قال بعد رؤيته لملك الوحى عليه السلام: (زملونى زملونى) كما قال: (دثرونى دثرونى) فى أحوال معلومة عند المفسرين وأصحاب الصحاح قد يكون تطويلا ذكرها هنا(٢).

ونداؤه بهذين الوصفين جاء ملاطفة ومؤانسة من الله سبحانه إلى رسوله (ﷺ)(٣).

---

(١) الكشاف جـ١ صـ٤٤ وإنما آثرت نقل هذا النص مع طوله لأنه تراث عظيم فى البلاغة القرآنية. وذكر الزمخشرى أيضا أن نداء القريب المفاطن بـ(يا) للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا. يراجع الكشاف الصفحة نفسها.

(٢) يراجع فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ١ صـ٣٠ : ٣٨، وصحيح مسلم بشرح النووى جـ٢ صـ١٩٧ : ٢٠٩ ، والكشاف جـ٤ صـ١٥٢، ومفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٧٩٣ : ٨٢٢، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٧٠، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٢، ٣٦٢ .

(٣) تراجع كتب التفسير السابقة فى دلالة الوصفين الصفحات المذكورة نفسها.

واستوقفنى كثيرا النداء بهذين الوصفين فى هذا المقام ولم يرد النداء بالنبى أو الرسول كما ورد فى القرآن، وراجعت البحث فى كتب التفسير وعلوم القرآن لأجد سرا لذلك، فوجدت عند الإمام القرطبى ـ رحمه الله ـ ما يمكن أن يكون جوابا عن ذلك قال: (وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزمل والمدثر فى أول الأمر؛ لأنه لم يكن بعد ادثر شيئا من تبليغ الرسالة) [١].

فالله خاطب رسوله بذلك دون ذكر الرسالة أو النبوة لأنه لم يكن قد كلف بعد بالتبليغ، بل كان فى مرحلة الإعداد الأولى.

وأرى أن ما تداوله المفسرون من أن (المزمل) و(المدثر) وصفان لحاله على الحقيقة وأنه تلفف فى ثيابه وقال: (دثرونى) وقال: (زملونى) هذا وإن أمكن حمله والقول به خاصة أن له روايات تؤيده، لكن الأقوى منه أن هذين الوصفين مرتبطان بالرسالة السماوية بمعنى أنه متزمل ومتدثر بثياب التقوى والنبوة الخاتمة وهذا فهم متداول عند جمع كبير من المفسرين، وابتدأ به القرطبى أحد رأييه فى توجيه الآية، وهذا قول عكرمة[٢]، وإنما ملت إلى هذا الفهم؛ لأن نزول القرآن الكريم إعلام لرسول الله (ﷺ) ابتداء أنه مرسل من الله، فالله وصف رسوله بوصف يليق بالرسالة يمدح فيه رسوله أنه مستعد لها ملتزم بحملها، ثم هو يعلنها بعد ذلك فى الناس، فالله تعالى يعطى الرسالات والكتب لأنبيائه أولا عن طريق الوحى ثم يأمرهم بعد حملها بتبليغها . قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فالتبليغ يؤمر به بعد الوحى، وقال سبحانه:

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٧٠ .
(٢) السابق الصفحة نفسها .

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾ [طه: ٤٢] فهما يذهبان فى صحبة الآيات وبسببها، وقال: ﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف: ٦٢] فهو يبلغ شيئا أوحاه الله إليه.

فالمزمل والمدثر وصفان للنبى (ﷺ) باعتبار الرسالة وما تقتضيه من استعداد لها وليسا وصفين ـ فيما أرى ـ لحالة نوم ورعب وخوف كما قيل.

ووصف النبى (ﷺ) بذلك فيه إشارة إلى أن الرسالة ستر شامل وفضل غامر، وأنها حلية وجمال وبهاء، فهو متحل بها ومتزين ببهائها[1].

وقد قال الزركشى كلاما قريبا مما قلناه قال: (وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ دليل على رسالته (ﷺ)؛ لأنها عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام)[2].

والوصف بذلك للإلهاب والإثارة والتهييج والحث على الامتثال فأنت المختار وأنت الخاتم وأنت منقذ العالم، وقد جاء كل وصف مناسبا لسياقه ومقامه؛ فالمزمل جاء مناسبا لفواصل السورة التى ختم أكثر آياتها باللام، والمدثر جاء متناسبا مع فواصل السورة التى جاءت فى معظمها على الراء.

وجاءت الأوامر عقب النداء فى السورتين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤] وقال فى المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ

---

(١) يراجع حاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٧٠.

(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ١ صـ٢٠٨ فالتكليف بالتبليغ والإنذار لا يخاطب به نائم متلفف فى ثياب إنما يخاطب به نبى يحمل تلك الأعباء الثقال فالوصف يوحى بالرسالة فى فهمى.

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ١ ــ ٧] ومعلوم أن النداء يأتى للتنبيه، فإذا عقب بالأمر، دل على أن الأوامر تدخل على نفس يقظة واعية بقيمة الكلام وأهميته.

ومعلوم عند أئمة التفسير أن قيام الليل يراد به الصلاة فيه[١].

والأمر فى ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ للوجوب فى حق النبى (ﷺ)، فالقيام فرض عليه وهو مخير بين هذه الأوقات المذكورة، أى: صل الليل إلا يسيرا منه، ثم قال تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ والضمير فى (منه) و(عليه) للنصف ، أى: قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا، أو زد عليه قليلا، و(أو) للتخيير بين الواجب[٢].

يقول سيد قطب ــ رحمه الله ــ فى بيان المناسبة بين الأمر بالقيام وطبيعة الدعوة: (وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه (ﷺ) من دفء الفراش فى البيت الهادى والحضن الدافئ، لتدفع به فى الخضم بين الزعازع والأنواء وبين الشد والجذب فى

---

(١) يراجع نظم الدرر جـ٨ صـ٢٠٣ والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٥٨ .

(٢) أفاض العلماء فى بيان المراد بهذه الأوقات ، والمستثنى منه، ولم يتفقوا فيها على رأى واحد وهناك الرأى المرجوح والآخر الراجح فى الجزء المراد قيامه يراجع فى ذلك: الكشاف جـ٤ صـ١٥٢ ومفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٧٩٤ وما بعدها، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ١٠٧٢ والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٣ وما بعدها ونظم الدرر جـ٨ صـ٢٠٥ وحاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٦٣ والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٥٩ .

ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء ، إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا، ولكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا. فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الكبير، فماله والنوم؟ وما له والراحة؟ وما له والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح؟، ولقد عرف رسول الله (ﷺ) حقيقة الأمر وقدره، فقال لخديجة (رضى الله عنها) وهى تدعوه أن يطمئن وينام: (مضى عهد النوم يا خديجة) أجل مضى عهد النوم، وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق)[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ تعليل للأمر بقيام الليل، فهى جملة مستأنفة بيانيا، تبين أن التهجد يعد النفس لما تستقبله من وحى السماء ، وعبر بأداة الاستعلاء (عليك)؛ لأن المقام لبيان الصعوبة وعظم الأمر، وجاءت الجملة مؤكدة للاهتمام بهذا الخبر العظيم[٢].

والقول الثقيل هو القرآن، ووصفه بذلك لثقل العمل بشرائعه وقيل: ثقيل: أى كريم، ليس بالخفيف السفساف، فلا يقوم به إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد، وقيل: ثابت لا يزول فهو محفوظ لا تبديل فيه، وقيل الثقل يتعلق بإلقائه على النبى (ﷺ) فهو ثقيل فى تلقيه كما ذكرت الروايات من أن الناقة كانت تضع صدرها على الأرض حتى يسرى عنه، وأن

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٦ صـ٣٧٤٤ .

(٢) يراجع نظم الدرر جـ٨ صـ٢٠٦ والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٦٢ .

جبينه (ﷺ) كان يتصبب عرقا فى الليالى ذوات البرد من شدة هذا القرآن[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ تعليل لتخصيص زمن القيام بالليل، وجاء التوكيد للعناية والاهتمام.

و﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾هى العبادة التى تنشأ فى الليل ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ ففى هذا الوقت يواطئ قلب القائم لسانه وجميع جوارحه، ويتوافق فيها السر والعلن، وقيل: هى أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار، ولعل ذلك يتناسب مع القول الثقيل الذى يحتاج إلى نفس قوية ثابتة نشيطة لا تركن إلى الكسل والخمول[2].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ وأصل السبح: المر السريع فى الماء، ثم استعير هنا للتقلب فى مهمات الحياة وشواغلها، فالله لما أمر نبيه (ﷺ) بقيام الليل خاصة ذكر له أسباب ذلك، وبين أن النهار يتقلب الناس فيه فى شواغلهم الكثيرة، وليس هناك أشرف من الليل لعبادة الله، ولعل إيثار كلمة (سبح) هنا لبيان سهولة الحركة المعايشة فى النهار، ويدرك المتأمل فى هذه الآيات طبيعة هذه الدعوة إنها تدعو للعمل

---

(١) ذكر العلماء وجوها كثيرة فى تأويل القول الثقيل حتى أوصلها الفخر الرازى إلى عشرة أقوال كلها محتملة. يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٢ وما بعدها، ومفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٧٩٨ وما بعدها، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٧٦ ، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٤ .

(٢) تتعدد آراء المفسرين فى المقصود بناشئة الليل وفى تحديد وقتها. يراجع فى ذلك الكشاف جـ٨ صـ٣٥٤، وحاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٦٥، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢٠٧ .

وتدعو للعبادة، كما أنها دعوة تدعو إلى تنظيم الحياة وكلها جد ونشاط. وواضح فى دين الإسلام بيان أهمية الصلاة والقرآن[1].

وفى سورة (المدثر) قال الله ــ عزوجل ــ لنبيه: (ﷺ) ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [الآيات: ٢ ــ ٥] فهنا أمر بالقيام وبأشياء أخرى لازمة لهذا الدين، قم: قيام عزم وتصميم، والزم هذا الأمر، والإنذار هو التخويف من عذاب الله وعقابه لكل البشر ولقومك خاصة، وجاء الإنذار هنا؛ لمناسبة المقام، لأنه كان فى ابتداء النبوة والناس قد عمهم الفساد، فذكر هنا أحد وصفى الرسالة إيذانا بشدة الحاجة إليه، وحذف المفعول إشارة إلى عموم الإنذار لكل مخالف[2].

ومن العلماء من يرى أن الفعل المتعدى نزل منزلة اللازم هنا، فلا يقدر له مفعول، أى: فليكن منك الإنذار دون النظر إلى من يقع عليه، وهو من مهمات الرسل الأولى[3].

والذى أميل إليه ولعله يتناسب مع مقام الآيات وسياقها ويتوافق أيضا مع الأمر بالصبر أن المفعول مقصود هنا سواء أكان عاما أى: جميع الناس، أم خاصا أى: قومك وعشيرتك: فليس المراد أن يكون منه الإنذار فحسب، بل أن يشتغل بالإنذار مع الإصرار، لأنه يواجه ناسا بغوا وعتوا وجحدوا بآيات ربهم. فالمفعول مقصود لأنه يناسب مراقبة المنذرين والحث على

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٣ ومفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٨٠٣، وتفسير الرطبى جـ١٠ صـ٧٠٨٠، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٥، وحاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٦٦، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢٠٧، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٦٤ .

(٢) نظم الدرر جـ٨ صـ٢٢١ بتصرف قليل .

(٣) يراجع الكشاف جـ٤صـ١٥٦،وحاشية الشهاب جـ٨صـ٢٧١ .

هدايتهم، ثم كان الحذف مع هذا مناسبا لفواصل السورة، وفعل (أنذر) يتعدى لمفعولين كما هو معلوم عند العلماء ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ [النبأ : ٤٠] وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ [القمر: ٣٦].

وفى قوله تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ قدم المفعول على الفعل لإفادة الاختصاص أى: خصه وحده بالتكبير والتعظيم والتمجيد ولا تكبر غيره، والفاء لإفادة الشرطية، والتقدير: ومهما يكن من شئ فكبر ربك(١).

وللمفسرين أقوال كثيرة حول المراد بقوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أوصلها القرطبى إلى ثمانية أقوال، وقسمها الفخر الرازى وفصل فيها وأطال حتى يصعب على القارئ حصر وعد الوجوه التى تفرعت فى تفسير الرازى، ويجب علينا قبل كل شئ أن نراعى دلالة الألفاظ، فإذا كان للفظ فى لغة العرب دلالة صوتية، ودلالة صرفية ودلالة نحوية ودلالة معجمية ودلالة أخرى سياقية مقامية هى المعنى العام والمحصلة النهائية التى يدل عليها السياق والمقام، إذا كان هذا كله مقررا عند علماء اللغة فيجب أن نراعيه ابتداء.

إن القرآن لم يقل: ولباسك فطهر، وقد ورد اللباس فى الأعراف وغيرها قال تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ... ﴾ [الأعراف: ٢٦] ولكن ورد التعبير هنا بالثياب دون غيره، ولهذ

---

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٦، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٦٢، وحاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٧٠، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٩٥ وما بعدها .

الكلمة دلالة عميقة فى لغة العرب، وكثر استعمالها فى الشعر الجاهلى للدلالة على شئ معين، كما فى شعر امرئ القيس وعنترة وغيرهما.

ويمكن لنا اقتداء بما قاله أئمة التفسير، وشعراء العرب. وبمراعاة السياق أن نقول: إن الثياب هنا: القلب، بدليل التعبير بالتطهير دون التنظيف مثلا، فالطهارة تقتضى منافاة العيب. يقال: فلان طاهر الأخلاق، والنظافة لا تستعمل فى المعانى، فلا نقول: فلان نظيف الخلق، ولكننا نقول: نظيف الصورة أى: حسنها[1].

واستعمال الثياب فى القلب أمر مقرر ومشهور عند العرب، قال امرؤ القيس:

وإن تك قد ساءتك منى خليقة ∴ فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقال: ثياب بنى عوف طهارى نقية[2].

وقال عنترة:

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ∴ ليس الكريم على القنا بمحرم[3]

هم أرادوا جميعا بالثياب القلوب ، فالثياب كناية عن القلب.

ويمكن أن يحمل الثياب هنا على الرسالة التى ألبسها الله عزوجل نبيه(ﷺ)وشرفه بها،وإذا صح هذا ـ والله أعلم بمراده ـ يكون أقرب وجوه التأويل فى الآية، ولعله يتناسب مع مطلع سورتى (المزمل)، و(المدثر) التى رجحنا ـ على قدر فهمنا ـ

---

(١) الفروق اللغوية لأبى هلال بتصرف.
(٢) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى صـ٤٦ .
(٣) السابق صـ٣٤٧ .

أنها أوصاف متعلقة بالنبوة والرسالة، وقد أشار الفخر الرازى إلى هذا الفهم كأحد وجوه التأويل فى الآية[1].

وأمر الله عز وجل نبيه (ﷺ) بهجر الرجز فى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، والرجز: هو العذاب فاللفظ على هذا مجاز مرسل بعلاقة المسببية، أى: اهجر كل عمل يؤدى إلى العذاب ويتسبب فيه، والأمر وارد للدوام والاستمرار؛ لأن النبى (ﷺ) كان بريئا من كل هذا، وتقديم المفعول للاهتمام ولمراعاة الفاصلة القرآنية[2] .

ثم نهى الله سبحانه رسوله (ﷺ) عن المن فى قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ وقد كثرت وجوه التأويل فى هذه الآية، وقسمها الفخر الرازى إلى مسائل كثيرة وفرع من كل مسألة أسئلة متنوعة، ووجوها متفرقة، وأوصل الإمام القرطبى وجوه التأويل فى الآية إلى أحد عشر وجها ثم قال: (هذه الأقوال وإن كانت مرادة، فأظهرها قول ابن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال، يقال: مننت فلانا كذا، أى أعطيته، ويقال للعطية المنة، فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها)[3].

---

(١) تراجع وجوه التأويل فى الآية وهل التعبير على ظاهره؟ أو هو على المجاز؟ فى الكشاف جـ٤ صـ١٥٦، ومفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٨٢٨، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧١٠٠ وما بعدها، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٦٣، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٩٧ وما بعدها .

(٢) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٦، ومفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٨٢٩، وحاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٧٢، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٩٨ .

(٣) تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧١٠٤ ، ويراجع مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٨٣٠ وما بعدها .

فالله تعالى نهى رسوله (ﷺ) عن تذكير النـــاس بإنعامـــه عليهم، ونهاه عن استعظام ما يعطيه، وهذا النهى يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة[1].

يقول البقاعى ـ رحمه الله ـ : (وذلك لأن الأليق بالمعطى من الخلق أن يستقل ما أعطى، ويشكر الله الـذى وفقـه لـه. وبالأخذ أن يستكثر ما أخذ، فأمر النبى (ﷺ) أن لا يفعل شيئا لعلة أصلا، بل لله خالصا، فإنه إذا زال الاستكثار حصل الإخـلاص... فيكون العمل فى غاية الخلوص لا يُقصد به ثوابا أصلا ولا يراد لغير وجه الله تعالى وهذا هو نهاية الإخلاص)[2].

فرسول الله (ﷺ) كان عمله كله لله خالصا لا يطلب عليـه أجرا من أحد ولا يريد ثناء الناس ومدحهم، أو غير ذلـك ممـا يكون فى نفوس البشر غير الأنبيـاء، إنمـا الأنبيـاء مهيئـون لاستقبال وحى السماء وتبليغه للناس قولا وعملا، فهـم علـيهم الصلاة والسلام مبرؤون غاية التبرئة مما يكـون فـى نفـوس الناس، وهذه دروس عالية لمن أراد التأسى والاقتداء!

---

(١) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٩٨ .

(٢) نظم الدرر جـ٨ صـ٢٢٢، ٢٢٣ .

ثانيا: الأمر بالصبر على أذى المكذبين:

من المناسبة بين السورتين أن الله تعالى أمر رسوله (ﷺ) فيهما بالصبر على أذى المعاندين المكذبين. قال سبحانه في سورة (المزمل): ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وقال في المدثر: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧] وهذا الأمر يتناسب مع ما يجب في هذه الرسالة الخاتمة، التي جاءت للبشر بكل طبائعهم لتخلصهم من سوء وفساد وقسوة وعناد.

وذكر الفخر الرازي المناسبة بين آية سورة المزمل وسياق الآيات قبلها فقال: (المعنى أنك لما اتخذتني وكيلا فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي فإنني لما كنت وكيلا لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك. واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين: كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا عنهم فإن خالطهم فلابد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم ... فأما إن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل ... والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المداراة والإغضاء وترك المكافأة) (١).

(١) مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٨٠٨ وما بعدها.

وفى آية سورة (المدثر) تقدم الجار والمجرور على الفعل فى قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ فأفاد القصر مع مراعاة الفاصلة، أى اجعل صبرك خالصا لله وحده.

ويرى الزمخشرى أن الأولى فى الآية أن يكون الأمر بنفس الفعل، أى ليكن منك الصبر وهذا يفيد وقوع الصبر على عموم الأشياء، فيدخل فيه الصبر على أذى قريش كجزء من هذا الصبر العام[1].

والضمير فى (يقولون) فى آية سورة (المزمل) عائد على المشركين، ولم يتقدم لهم ذكر؛ لأنهم معلومون للسامع؛ ولأن السياق الآتى يبينهم فى قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالله تعالى يأمر رسوله (ﷺ) بأن يصبر على أذاهم وإذا هجرهم فلا يزيد على هجرهم بالسب والانتقام والجفاء وباقى أنواع الأذى. بل يحسن فى التعامل أو الترك[2].

---

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٧ ، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢٢٣. والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٩٩ وما بعدها.

(٢) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٦٨ وما بعدها .

ثالثا : تهديد المكذبين بألوان العذاب الأليم:

من المناسبة بين السورتين أيضا أن الله تعالى هدد المكذبين وتوعدهم بالانتقام. قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١١ ــ ١٤] وقال في سورة (المدثر): ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١ ــ ١٦] في هذه الآيات تسلية لرسول الله (ﷺ) بأن ربه سبحانه كافيه أولئك الظالمين، وناصره عليهم، وفيه تهديد ووعيد لأولئك العصاة أى دعنى وإياهم كما في سورة (المزمل) أو دعنى وإياه كما فى سورة (المدثر) فسترى ما أصنع بهم وبه، وهى كلمة يقولها من اشتد غضبه وزاد كرهه، ومعنى الكلام: أنه لا أمل فى إيمانهم ولا شفاعة فى قبولهم[١].

وقد استعمل القرآن فعلا واحدا فى السورتين وهو (ذرنى) وهذا التهديد مناسب لمقام الإنذار الذى يتوجه فيه الوعيد إلى كل جبار عنيد، إنه وارد من الله سريع الحساب، فهو سبحانه الذى يتولى الانتقام وحده ، يتولاه بقدرته وفى الوقت الذى يريده، إن غضب الله قد حل بهم ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

ولنتأمل التهديد هنا وفى القرآن المكى عموما وفى أوائل ما نزل على جهة الخصوص، إنه تهديد بسرعة العذاب وقرب

---

(١) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣٠٢ وما بعدها .

الانتقام؛ لأن الدعوة الإسلامية فى أولها وإذا هدمت فلن تقوم وإذا قضى على رسول الله فلن يعبد الله فى الأرض؛ ولأن الله متم نوره وناصر دينه وجاعل الغلبة لحزبه جعل التهديد فى القرآن المكى يأخذ شكلا مخيفا لمن تأمل القرآن واستوعب دلالته، وهو سرعة الانتقام كما قلت وحصوله فى الدنيا قبل الآخرة، وإنى لأخشى فى كثير من الأحيان أن يحل بالناس اليوم ما حل بمكذبى الرسل وتاركى العمل فى ذلك الزمن القديم حين أخذهم الله بالفقر والجوع والخوف: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، و﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، و﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] .

وأعود فأكرر: التهديد فى القرآن المكى قوى وشديد التأثير فيمن تأمل القرآن، فلنقرأ قول الله فى سورة (العلق)، وهى من أوائل ما نزل من القرآن: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٤ ـ ١٨] ولنقرأ فى سورة (القلم): ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤ ، ٤٥] وإلا فماذا يفهم أهل مكة ومكذبو العرب وغيرهم فى كل زمان ومكان ، ماذا يفهمون من قول الله : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا

شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] إنها طريقة خاصة فى التهديـد، حين شبه القرآن حالهم بحال رجل لم تعرف البشرية أفجـر ولا أطغى منه إن الله قال فى شـأنه ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ [الزخرف: ٥٥] إنها نهاية حتمية وسريعة، إن فرعـون طغـى وعلا فى الأرض بما لم يصل إلى حده أحد ثم ماذا كانت نهايته؟

إن الله سبحانه ذكر فى سورتى: (المزمل) و(المـدثر) أن سبب التكذيب والطغيان هو النعمة التى أنعم الله بها على الناس فأصابهم الغرور وكفروا بالمنعم، وهذه مناسـبة أخـرى لـذكر فرعون الذى أطغاه النعيم وعطاء الله العميم(١).

وقد صرح القرآن فى سورة (المزمل) بقرب حلول العذاب بهم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ فوصـف الله تعـالى الإمهال بالقلة، وأعلم رسوله (ﷺ) بقرب الفرج بأخذهم سـريعا وهى من مبشرات القرآن لرسـوله (ﷺ) ومـن الإخبـار عـن المستقبل الذى يحقق صدق القرآن وقد ذكر المفسرون أن الزمن بين نزول هذه الآية ووقعة بدر كان يسيرا(٢).

وفى سورة (المدثر) ورد التهديد مفصلا فى شـأن واحـد عناه القرآن ، قال تعالى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ ﴾ [الآيات: ١١ ـ ١٥].

---

(١) سيأتى الحديث مفصلا عن سر ذكر فرعون هنـا حـين نتنـاول الصورة القرآنية والعلاقة والمناسبة بين فرعون وأهل مكة.

(٢) يراجع مفاتيح الغيب جـ١٥ صـ٨١٠ ، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٨٣، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢١٠، ٢١١ .

أجمع المفسرون على أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى، وأن كلمة (ذرنى) واردة للتهديد والوعيد وفيها تسلية لرسول الله (ﷺ) .

وأود أن أشير أولا إلى أن قصة الوليد بن المغيرة وما خص به من أوصاف قريبة من ذكر فرعون فى سورة (المزمل) وإن كانت المناسبة خفية وتحتاج إلى كثير من التأمل لإدراك ما وراء ذلك، فالقرآن وصفه بالثراء وقوة الجاه المتمثل فى الأبناء ووصفه بالعنيد وأن ذلك يؤدى به إلى الهلاك؛ لأنه أوصله للطغيان والعناد، ومن ناحية أخرى وصف الله حالته فى تحديه للقرآن من تفكير وتقدير ونظر وعبوس وإدبار واستكبار وهذا ـ فيما أرى ـ لا تقل عن أوصاف فرعون التى ذكرها سبحانه فى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦] وقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ...﴾ [طه: ٧١] ففرعون يصف ما جاء به موسى عليه السلام بالسحر، بل صرح القرآن على لسانه أنه وصف نبى الله موسى بالساحر: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ...﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥] وهنا يصف الوليد ـ أيضا ـ ما جاء به رسول الله (ﷺ) بالسحر، والقرآن سجل فى كثير من مواقعه أن ثراء فرعون كان سببا فى الطغيان ، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ...﴾ [الزخرف: ٥١] وفى سورة (المدثر) يذكر القرآن مال الوليد واغتراره به وطمعه فى الزيادة.

إن المتأمل فى القرآن يجد إشارة واضحة إلى أن رسول الله (ﷺ) يواجه رجلا طاغية كما واجه موسى عليه السلام فرعون ٠

قال الطاهر بن عاشور : (تصدير الجملة بفعل: (ذرني) إيماء إلى أن الرسول (ﷺ) كان مهتما ومغتما مما اختلقه الوليد بن المغيرة فاتصاله بقوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ يزداد وضوحا)[1] ٠

و(وحيدا) منصوب على الحال، وصاحبه الضمير المحذوف العائد على (من) والتقدير: ومن خلقته وحيدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته بعد ذلك فطغى، وقيل: إن صاحب الحال الضمير المنصوب فى (ذرنى) أى: ذرنى وحدى معه فأنا قادر عليه وكافيك أمره، ويجوز أن يكون صاحب الحال التاء فى (خلقت) أى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد فحين أريد هلاكه لا أحتاج إلى ناصر[2] ٠

وسواء أكان هذا الوصف (وحيدا) حالا للخالق أم للمخلوق فرسول الله (ﷺ) أمام شخص صار خطرا بينا على الدعوة وأن الله تولى أمره وفصل للخلق حاله ليكون عبرة لكل أمثاله، ولا يغيب عن الذهن أن خطورة المواجهة تزداد حساسية لأن الدعوة ما زالت فى بدايتها ٠

وقد ذكر الله تعالى من أوصاف هذا الرجل ما يتناسب مع المجتمع القبلى الذى كانت تعيشه العرب فى جاهليتها لأن فيه الزعامة والعزة والجاه والشهرة وهذا ما يفهم من وصف

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣٠٣ ٠

(٢) يراجع الكشاف جـ٤صـ١٥٧،ومفاتيح الغيب جـ١٥صـ٨٣٨، وتفسير القرطبيجـ١٠صـ٧١٠٨،والبحر المحيطجـ٨صـ٣٦٥ ٠

(وحيدا) وأنه كان يلقب بريحانة قريش، وأن له مـــالا ممـــدودا وبنين شهودا وهذه هى الزينة التى بينها القرآن فى قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] فالرجل عنده مال ممدود لم يحدده القرآن ولسنا بحاجة إلى تحديده ولا مكانه ولكن لنا أن نتصور ذلك من خلال وصفه (بممدود) والذى يدل علـــى الزيادة المستمرة سواء أكان هذا وصفا للثروة الحيوانية من إبل وغنم وهى عنوان الثراء فى العرب أم كان للتجارة والـــربح أم كان للبساتين وما فيها من أشجار مثمرة وفواكه متنوعة، وكـــل هذا جائز فالإبل والغنم تتكاثر من خلال ما تخلفه مـــن الـــولادة والإنتاج والتجارة تزداد وتنمو بالربح، والثمار تكثر ويكون تنوعهـــا فيحصل ثمرها على طوال العام . إن القرآن يجعلنا نســـبح بأفكارنـــا لنتصور ونتخيل هذا المال الممدود وهذا من ثراء العطاء القرآنى .

ليس هذا وصفه فحسب بل له (بنين) وهم الذكور من الولد وهم المحببون إلى النفس خاصة فى ذلك المجتمع، وقد تنبه إلى ذلك البقاعى ـــ طيب الله ثراه ـــ فذكر تلك الملاحظـــة والرغبـــة النفسية فى كلمة (بنين) فهى وإن دلت على القوة والعزة لكنهـــا تدل مع ذلك على أن الله أعطاه ما يحبه الناس خاصة فى ذلـــك المجتمع الذى لا يحترم إلا القوى الغنى، وزاد من ذلـــك قولـــه (شهودا) فهم حاضرون معه، يحيطون به، وهو مستأنس بهـــم. ولهم الوجاهة فى قريش، ويحضرون معه المجامع والمحافـــل. وتسمع شهادتهم، كل هذا يحتمله اللفظ ويقبله السياق وهذا من عطاء القرآن فى دلالة ألفاظه وكرم معانيه[١].

---

(١) يراجع الكشاف جـــ٤ صـــ١٥٧، ونظم الدرر جـــ٨ صـــ٢٢٥ .

ثم قال الله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ إنها غاية النعيم الذى يناله أمثاله فى هذه الدنيا. قال الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : (وبسطت له الجاه العريض والرياسة فى قومه فأتممت عليه نعمتى المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون زيادة الجاه والحشمة، وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم، ولذلك لقب بالوحيد وريحانة قريش) [(١)].

واستوقفنى كثيرا، ودعانى لطول التأمل قوله تعالى فى شأن هذا الرجل: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾!! إنه بعد هذا كله يطمع فى الزيادة، أليس هذا قريبا من طمع فرعون حين قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ...﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] ماذا كان يقصد الوليد من الزيادة؟ وأى زيادة عناها القرآن؟! وهل تحقق له ذلك؟ ولماذا؟!

يقول الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : (﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه) [(٢)].

قال الشهاب الخفاجى ـ رحمه الله : (يعنى (ثم) ليست للتراخى هنا؛ لأن طمعه فى حال التمهيد وما معه لا بعده بمدة، والاستبعاد غير التفاوت الرتبى، بل عد الشىء بعيدا غير مناسب هنا؛ لما عطف عليه، كما تقول: تسئ إلى ثم ترجو إحسانى فنزل البعد المعنوى منزلة البعد الزمانى) [(٣)].

---

(١) الكشاف جـ٤ صـ١٥٧ .
(٢) السابق الصفحة نفسها .
(٣) حاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٧٤ .

(وحيدا) وأنه كان يلقب بريحانة قريش، وأن له مـالا ممـدودا وبنين شهودا وهذه هى الزينة التى بينها القرآن فى قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦] فالرجل عنده مال ممدود لم يحدده القرآن ولسنا بحاجة إلى تحديده ولا مكانه ولكن لنا أن نتصور ذلك من خلال وصفه (بممدود) والذى يدل علـى الزيادة المستمرة سواء أكان هذا وصفا للثروة الحيوانية من إبل وغنم وهى عنوان الثراء فى العرب أم كان للتجارة والـربح أم كان للبساتين وما فيها من أشجار مثمرة وفواكه متنوعة، وكل هذا جائز فالإبل والغنم تتكاثر من خلال ما تخلفه مـن الـولادة والإنتاج والتجارة تزداد وتنمو بالربح، والثمار تكثر ويكون تنوعهـا فيحصل ثمرها على طوال العام . إن القرآن يجعلنا نسـبح بأفكارنـا لنتصور ونتخيل هذا المال الممدود وهذا من ثراء العطاء القرآنى .

ليس هذا وصفه فحسب بل له (بنين) وهم الذكور من الولد وهم المحببون إلى النفس خاصة فى ذلك المجتمع، وقد تنبه إلى ذلك البقاعى ــ طيب الله ثراه ــ فذكر تلك الملاحظـة والرغبـة النفسية فى كلمة (بنين) فهى وإن دلت على القوة والعزة لكنهـا تدل مع ذلك على أن الله أعطاه ما يحبه الناس خاصة فى ذلـك المجتمع الذى لا يحترم إلا القوى الغنى، وزاد من ذلـك قولـه (شهودا) فهم حاضرون معه، يحيطون به، وهو مستأنس بهـم. ولهم الوجاهة فى قريش، ويحضرون معه المجامع والمحافـل. وتسمع شهادتهم، كل هذا يحتمله اللفظ ويقبله السياق وهذا من عطاء القرآن فى دلالة ألفاظه وكرم معانيه[١].

---

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٧، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢٢٥ .

ثم قال الله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ إنها غاية النعيم الذى يناله أمثاله فى هذه الدنيا. قال الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : (وبسطت له الجاه العريض والرياسة فى قومه فأتممت عليه نعمتى المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون زيادة الجاه والحشمة، وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم، ولذلك لقب بالوحيد وريحانة قريش) (١).

واستوقفنى كثيرا، ودعانى لطول التأمل قوله تعالى فى شأن هذا الرجل: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾!! إنه بعد هذا كله يطمع فى الزيادة، أليس هذا قريبا من طمع فرعون حين قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ...﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] ماذا كان يقصد الوليد من الزيادة؟ وأى زيادة عناها القرآن؟! وهل تحقق له ذلك؟ ولماذا؟!

يقول الزمخشرى ـ رحمه الله ـ : (﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه) (٢).

قال الشهاب الخفاجى ـ رحمه الله : (يعنى (ثم) ليست للتراخى هنا؛ لأن طمعه فى حال التمهيد وما معه لا بعده بمدة، والاستبعاد غير التفاوت الرتبى، بل عد الشىء بعيدا غير مناسب هنا؛ لما عطف عليه، كما تقول: تسئ إلى ثم ترجو إحسانى فنزل البعد المعنوى منزلة البعد الزمانى) (٣).

---

(١) الكشاف جـ٤ صـ١٥٧ .
(٢) السابق الصفحة نفسها .
(٣) حاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٧٤ .

فالشهاب فصل وبين مراد الزمخشرى فى أن طمع الوليد فى الزيادة كان حاصلا حال النعمة فـ(ثم) ليست للتراخى الزمانى؛ لأنه غير مناسب هنا، بل هى للبعد المعنوى، الذى يطلب فيه الشئ حين تستحيل أسبابه.

وقد يقول قائل: كيف فهم الزمخشرى ومن جاء بعدد الاستبعاد والاستنكار والتعجيب من طمع الوليد فى الزيادة، وهذا طبع أصيل فى النفس البشرية التى تحب المزيد؟

والمتأمل يدرك دقة فهم جار الله الزمخشرى الذى ربط الكلام وأدرك سياقه وراعى النظم كله ومقام الحديث، فالإنسان لا غنى له عن فضل الله، هذا أمر واقع، لكن متى يصح هذا؟ ومتى يكون بلا عجب؟ إنه يصح عندما يكون للعبد وجه أن يسأل خالقه الذى أنعم عليه، وذلك بطاعة الله وشكره والاعتراف بنعمه وتقديرها، أما أن يكفر بخالقه ويغتر ويتكبر ويطغى ويدعى أنه أهل لذلك وأنه يستحق المزيد فهذا هو الأمر الذى يدعو للاستنكار والاستغراب والعجب وهذا ما ينطبق على الوليد بالفعل.

فثم إذا للتراخى الرتبى الذى يبين أن طمعه فى الزيادة مع ما هو عليه أمر أعظم وأعجب من الحالة التى هو فيها[1].

ثم ردعه الله تعالى وأبطل طمعه فى الزيادة بقوله: (كلا) وبين سبب هذا الردع وهذا الإبطال بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝﴾ فهذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان علة ذلك وسببه[2].

---

(١) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣٠٥، فهو رتبة بعيدة ومستحيلة الوقوع.

(٢) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٨،وهذا فهم متداول عند المفسرين.

وقد ذكر البقاعى ــ رحمه الله ــ أن هذه الآية علم من أعلام النبوة وبرهان قاطع على صحة الرسالة، لأن هذا الكلام لا يصح أن يقوله غير الله العليم الخبير القادر على فعل ما يشاء، فقد تم ذلك بالفعل وتحقق صدقه، فلم يزد بعد ذلك شيئا بل لم يزل فى نقصان حتى هلك[1].

وهذا ما عناه الدكتور/ محمد أبوموسى بالكلام الدال على صاحبه فكلام الله دليل على الله، ولا يوجد منه شئ فى كلام الناس وهذا من البلاغة الخاصة بالقرآن، فليس فى القرآن ريح النفس البشرية؛ لأن البشر ليس عندهم هذه القدرة وهذا العلم الغيبى وأشار أستاذنا إلى أهمية ربط البيان بصاحبه وكشف العلاقة بين القول والقائل، وذكر أن هذا عالم آخر وميدان آخر، وعالم زاخر، ولكنه ميدان غير موطوء، وفيه رؤوس مسائل تحتاج إلى دراسات متسعة تتعمق فى سمت الكلام ليتضح للناس كيف يفترق القرآن عن غيره من كلام الناس وكيف تفترق بلاغته، وبين أن هذه الخصوصية فى القرآن لها ريح قديم فى زمن المبعث حين كان الناس يطلبون من رسول الله (ﷺ) أن يسمعهم القرآن، ويقولون له: أعد فيعيد، فيمدون أيديهم يبايعون رسول الله (ﷺ) لأنهم يعلمون أنه ليس من كلام أهل الأرض[2].

وقديما أشار الباقلانى إلى هذا المعنى فى قوله: (والشئ إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه سلم فى نفسه وبانت فخامته وشوهد أثر الاستحقاق فيه، وإذا صدر من

---

(١) يراجع نظم الدرر جـ٨ صـ٢٢٥ .

(٢) يراجع هذا الكلام الطيب فى شرح أحاديث من صحيح البخارى للدكتور محمد أبوموسى صـ١١٨ : ١٢٥ .

متكلف، وبدا من متصنع بان أثر الغربة عليه وظهرت مخايل الاستيحاش فيه، وعرف شمائل التحير منه، إنا نعرف فى شعر أبىنواس أثر الشطارة وتمكن البطالة، وموقع كلامه فى وصف ما هو بسبيله من أمر العبارة، ووصف الخمر والخمار ، كما نعرف موقع كلام ذى الرمة فى وصف المهامة والبوادى والجمال ... وإنما ذكرت لك هذه الأمور لتعلم أن الشئ فى معدنه أعز وإلى مظانه أحن وإلى أصله أنزع وبأسبابه أليق ، وهو يدل على ما صدر منه وينبه ما أنتج عنه ويكون قراره على موجب صورته وأنواره على حسب محله، ولكل شىء حد ومذهب ولكل كلام سبيل ومنهج ... الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الألوهية، يتميز عما لم يكن كذلك) [١].

هذا هو الفرق بين كلام الله عزوجل وكلام البشر إن كلام الله تعالى فيه عزة الربوبية ورفعة الألوهية وليس مثله كلام البشر.

ثم بين الله تعالى بعد ذلك جانبا من كيد الوليد بن المغيرة للقرآن وأنه أحكم هذا الكيد، وفكر فيه كثيرا وتفاعل معه وقدر فى نفسه ماذا يقول ثم خرج على الناس بما حكاه القرآن عنه.

والعجيب فيما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة أنه وصفه وصفا شاملا لكل أحواله، ووراء ذلك جمل من الدلائل والأسرار.

إن القرآن وصف الحالة الذهنية والمحاورة الداخلية التى عاشها الوليد مع نفسه يعد فيها الأمر إعدادا محكما كى لا ينهزم أمام النبى محمد (ﷺ) والذين معه، إنه لا يريد أن يضعف أمام هذا الرجل الذى جاء بدين جديد سيغير أحوالا ويبدل أمورا لا يرضى بتبديلها أهل الفسق والفجور. ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ هذه عملية

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى صـ٢٧٩ : ٢٨١ .

ذهنية، رتب فيها أمورا فى عقله وفؤاده، ثم وصف القرآن شكله وانفعاله الخارجى وأثر الفكر على جوارحه وكيف أثر عليه فكره واستحوذ عليه حتى طفح على جوارحه فتفاعلت حتى صار كتلة فى الفساد.

وأرى ان هناك ارتباطا دقيقا بين (نظر) وبين ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ فالله وصف العين وحالة الوجه كله، وهذا ـ فيما أرى ـ وصف يقع على الغالب وليس على المغلوب المقهور !!! فالشخص فى العادة إذا ظفر بشيء يرى فيه النصر والغلبة والعلو عمن حوله يخرج على الناس بأشكال تناسب تلك الحالة، فالوليد ـ فى فهمى ـ ظن الانتصار والفوز، فبرقت عينه ونظر بها فى الناس ليعلن فيهم أن وراءه شيئا ما، بعد ذلك لاح على وجهه الاستكبار والعلو، فهى حالة الغلبة الظنية وليس حال الكسرة الانهزامية. وهذا ـ إن صح فهمى ـ قريب من ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ [الحج: ٩] فهى أشكال خاصة علته لتدل عما بداخله، وهذا دليل واضح على انفعاله وأنه أعمل فكره وأعطى الأمر كل أسبابه البشرية التى قدرت له.

والذى يقوى هذا الفهم أن الله قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ إنه طار كبرا وغرورا بما رأى فى نفسه ولم يشأ أن يرجع عنه وإدباره ليس توليا لا رجعة بعده، ولكنه إدبار المنشغل بالأمر الذى هو دائما فى إقبال وإدبار وحركة انفعالية لا تهدأ ولا تتوقف، وهذا شأن الناس حين تشغلهم القضايا الكبرى والأفكار العميقة.

القرآن ـ هنا ـ يعطينا الصورة والحركة ويشخص لنا الحدث وينقل لنا الخبر مجسما كأننا نراه.

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن هذه الصورة التى رسمها القرآن: (ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيـرة للسـخرية، والرجل يكد ذهنه، ويعصر أعصابه، ويقبض جبينه، وتكلح ملامحـه وقسماته ... لمحة لمحة وخطرة خطرة وحركة حركة يرسمها التعبير كما لو كانت ريشة تصور، لا كلمات تعبر بل كما لـو كانـت فيلمـا متحركا يلتقط المشهد لمحة لمحة.

لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعـوة هـى قضـاء (فقتـل)، واستنكار كله استهزاء (كيف قدر) ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار.

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا فى جد مصطنع متكلـف يـوحى بالسخرية منه والاستهزاء.

ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا ويقبض ملامح وجهه باسرا ليستجمع فكره فى هيئة مضحكة.

وبعد هذا المخاض كله وهذا الحزق كله لا يفتح عليه بشـىء إنما يدبر عن النور ويستكبر ... إنها لمحات حيـة يثبتهـا التعبيـر القرآنى فى المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة فى اللوحة وأجمل ممـا يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار وإنها لتدع صـاحبها سـخرية الساخرين أبد الدهر وتثبت صورته الزرية فى صلب الوجود تتملاها الأجيال بعد الأجيال) [1].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٦ صـ٣٧٥٧، وقد اهتم سيد قطب ــ رحمه الله ــ بالتصوير والتجسيم والتخييل فى القرآن وأفرده بالتأليف فى كتاب له سماه: (التصوير الفنى فى القرآن) بين فيه أن التصـوير يمنح المعنى الذهنى هيئة وحركة وقد يضاف إلـى ذلـك الحـوار فتستوى كل عناصر التخييل، وفى ذلك قدرة قادرة ومعجزة ساحرة كسائر معجزات الحياة وتلك طريقة القرآن، وإنه لفن عظيم.=

إن الله تعالى لم يترك الوليد على هذه الحالة كيف وقد قال لرسوله (ﷺ)﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إن الله توعده بالعذاب وعاجله بالفقر بعد الغنى، وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليلا للوعيد السابق، ثم ورد التعجيب من تقديره فى قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ إنه أصاب المحز ورمى الغرض الذى قصدته قريش، ويجوز أن يكون ذلك ثناء عليه على طريق الاستهزاء، أو حكاية لقولهم وما كرروه كأن القرآن يتهكم بهم وبإعجابهم بتقديره.

و(ثم) فى قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ للدلالة على أن الكرة الثانية فى الدعاء عليه أبلغ من الأولى. أما (ثم) التى وردت وتكررت فى أوصاف الوليد فهى للتراخى الزمانى الذى يبين أن بين تلك الأفعال تراخيا وتباعدا، أما الفاء فواردة للدلالة على التعقيب لأن الكلمة لما خطرت بباله لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث[1] .

ومن بديع نظم الآيات أن الله أثبت لهذا الرجل التفكير والتقدير فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ ثم دعا عليه فى قوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وكرر اللعن بقوله ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ إن القرآن دعا عليه بسبب تقديره لا بسبب تفكيره؛ إن الله لم يقل: فقتل كيف فكر، ولم يقل: فقتل كيف فكر وقدر فى حين أن القرآن أثبت له التفكير والتقدير، إننا نعلم أن تفكيره لم يكن للإنصاف والوصول للحق بدليل التقدير الذى بنى عليه، ومع ذلك كله لم يتوعده الله على تفكيره؛ إن القرآن يدعو لإعمال العقل ولا يحجر على التفكر، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ... ﴾ [الأعراف: ١٨٤] ومدح قوما من عباده أنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾

= يراجع الكتاب المذكور صـ٣٤ وقد كرر كلامه صـ٦٢ ليؤكد أهمية الصورة وقيمتها فى بلاغة القرآن وإعجازه. ويراجع فيه أيضا صـ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٨ .

[آل عمران: ١٩١] ولطالما أثنى القرآن على أولى الألباب، وأولى النهى، إن هذه فضيلة فى هذا الدين العظيم.

إن المنصف يرى حين يتأمل هذه الآيات أنها صادرة عن عزة الربوبية ورفعة الألوهية وليس فيها ريح النفس البشرية. فليتفكر الناس فى هذا القرآن ولتتأمله عقولهم إنهم حين يدركون الحقيقة سيخرون لله سجدا يبكون!!

إن هذا كلام القوى المتين العزيز الخبير، ماذا كان الحال لو قيل: فقتل كيف فكر؟ أو قيل فقتل كيف فكر وقدر؟ ألم يتهمونا وقتها أن هذا القرآن يحرم الفكر ويدعو لإهمال العقل؟ أليست هذه لطيفة قرآنية تبين دقة نظم هذا القرآن، وأنه دليل على الخالق؟ إن الله وصف الرجل بالتفكير والتقدير ولكنه دعا عليه بتقديره لا بتفكيره حتى وهو باطل!!

إن القرآن يدعو الناس ليتفكروا لكن بشرط أن يكون فكرهم نابعا من عقل سليم، أما إذا اختلت عقول البشر وساء فكرهم وخرجوا على الناس بالأباطيل فلابد أن تتم المحاسبة على ضلال التقدير ليبقى الكون نقيا صالحا للبقاء، وليس للأهواء.

إن الوليد خرج بكلمته الشنيعة فى حق القرآن: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ فقصر القرآن على السحر وأنه قول بشر وهو يقصد من وراء ذلك أنه ليس بكلام الله وعبر (بهذا) ولم يسمه باسمه لأنه لم يعترف به أصلا وقد قيد السحر بقوله: (يؤثر) ليبين أنه سحر فائق وعجيب وليس له نظير[1].

---

(١) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣١٠.

رابعا : وصف عصيانهم وإعراضهم:

من وجوه المناسبة بين السورتين أن الله سبحانه سجل فيهما إعراض أهل مكة وعصيانهم بعد أن جاءهم رسول الله (ﷺ) يذكرهم وينصح لهم ويرشدهم إلى طريق الرشاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] وقال سبحانه في سورة المدثر: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [الآيات ٤٩ ـ ٥١] وهذا التصوير الواقع في السورتين يستوقفنا لنتأمل خصوصية الصورة في المشبه به والذى يراد إلحاق المشبه بها.

لماذا فرعون بالذات؟ ولماذا القسورة ؟، وما دلالة ذلك؟

واضح فى الصورة الأولى أن الله تعالى شبه إرسال رسول الله (ﷺ) إلى أهل مكة بإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه.

وقد ذكر أئمة التفسير أن المناسبة بين الإرسالين أن هذه السورة من أول ما نزل من القرآن وما زال الدين ضعيفا وكان أهل مكة فى غاية العناد والطغيان، فقد ازدروا محمدا (ﷺ) واستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم كما ازدرى فرعون موسى لأنه رباه ونشأ بينهم، فاختيار هذا التمثيل؛ لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال فرعون واحد، من عبادة غير الله والتكبر والتعالى على رسل الله.

وقد سجل القرآن هذا التعالى عن أهل مكة فى قول الله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

وفى قوله: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال عن فرعون وقومه: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقال: ﴿ ...وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣] وقال: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٩] .

وقد صرح القرآن فى سورة (المزمل) بصفة المشبه به فى قوله تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ وهى صفة مرادة، إنها توضح مراد القرآن، إن فى هذا تهديدا صريحا لقريش ومن على شاكلتهم، إن عقاب الله محيط بهم وواقع عليهم إثر عصيانهم لرسول الله(ﷺ) وكفرهم بهذا القرآن.

ونكر (رسولا) لعلمهم برسولهم، وبموسى عليه السلام، ولأن المراد صفة الإرسال وليس شخص المرسل[1].

وقد لمح البقاعى سرا لتنكير "رسولا" فيما يخص موسى عليه السلام فقال: (ولعله نكره للتنبيه على أنه ليس من قوم فرعون فلا مانع له من حميم....)[2] .

وأرى أن تنكير (رسولا) فى الموضعين للتعظيم والتفخيم، فرسول العظيم عظيم، وشهادة الرسول عليهم شرف، كما أنهما من أولى العزم.

---

(١) يراجع تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٨٥، ٧٠٨٦، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢١٢، ٢١٣، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٢، ٢٧٣ .

(٢) نظم الدرر جـ٨ صـ٢١٣ .

وورد الخبر مؤكدا مراعاة لحال كفار مكة، فقد كذبوا وأنكروا الإرسال[(١)]٠

وهذا تشبيه هيئة، لا يصح تقسيمه وتجزئته، لنقول : شبه الرسول محمدا بموسى عليهما السلام أو نقول : شبه كفار مكة بفرعون وقومه فهذا غير وارد ولا يصح فى تشبيه الهيئة كما ذكره البلاغيون٠

فالتشبيه بفرعون مراعى فيه الاستكبار والإعراض وكل أنواع العداوة والعصيان التى كانت فى فرعون، ثم فيه التهديد والوعيد والإشارة إلى نصر وغلبة هذا الدين٠

أما الصورة فى سورة (المدثر) فهى قريبة من هذه التى ذكرناها فى (المزمل) فى بيان الإعراض وإن كانت تختلف عنها فى خصوصيات أخرى ٠

قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [الآيات ٤٩: ٥١] وقبل أن نمضى فى بيان الصورة يحسن أن نتوقف أمام مفردة قرآنية لم ترد إلا فى هذا الموقع فى القرآن وهى كلمة (قسورة) وإنما دعانى لذلك؛ أننى رأيت المفسرين يذكرون فى هذه المفردة وجوها معينة تحتاج إلى تدقيق لبيان المعنى الأرجح الذى يتناسب مع سياق الآيات ٠

هم ذكروا أن (القسورة) الأسد، وقيل: (جماعة الرماة، وقيل: ظلمة الليل، وقيل ركز الناس وأصواتهم[(٢)]٠

---

(١) يراجع نظم الدرر جـ٨ صـ٢١٢ ، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٣ ٠

(٢) تراجع هذه الوجوه فى الكشاف جـ٤ صـ١٦٢ ، ومفاتيح الغيب جـ١٦ صـ١١، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧١٢٥ وما بعدها٠

وهذه أربعة وجوه ذكرت فى معنى كلمة واحدة، وللتدقيق فى معنى الكلمة يجب أن نراعى دلالة السياق ودلالة اللغة فالمعنى المعجمى هو الأصل فى الدلالة كما هو معلوم .

والسياق هنا يدل على شدة النفار وشدة الرعب والخوف لهذه (الحمر) والمقصود بها حمر الوحش النافرة، وهذا الرعب الشديد لا يمكن أن يكون من ظلمة الليل مجردا مما يستدعى الخوف فيه، فلم يعهد الناس أن هناك حمارا أو غزالا أو بشرا نفر من طلوع الشمس أو غروبها أو من وجود القمر أو غروبه أو من ظلمة الليل شتاء أو صيفا فالزمان المجرد من الفجائع لا يثير رعبا فى ذاته عند الخلق لتعودهم عليه وإلفهم له. وكذلك الرماة أو أصوات الخلق، فالناس لم يعهدوا فى بلاد العرب ولا فى غيرها أن الحمر توصف بهذا النفار المخيف الذى يسترعى انتباه الناظرين من أصوات ناس أو وجودهم حتى لو كانوا صائدين .

بقى إذا أن تكون الدلالة منصبة على الأسد، فهو أقوى المخلوقات إثارة لرعب الحمر الوحشية .

وهذا أقرب إلى السياق الذى يدل على شدة النفار .

ولعل اللغة تؤيد ذلك فقد ذكر جلال الدين السيوطى فى كتابه (المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب) أن (القسورة) اسم الأسد بالحبشية، وقال بهذا الرأى فريق من المحققين المحدثين، وقد أشار الراغب الأصفهانى إلى هذا المعنى وكذلك أشار ابن منظور كما رجح الألوسى وجمهور المفسرين هذا الرأى[1] .

---

(١) يراجع المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب صـ٧٨، ويراجع أطوار الثقافة والفكر صـ١٠٠ ، والمفردات مادة: (قسر) ، وكذلك اللسان ، ويراجع روح المعانى جـ١٥ صـ١٤٨ .

ومعلوم عند أئمة اللغة وبصريح القرآن أن القرآن (عربى) نزل بلسان النبى محمد (ﷺ) وقد جاء فى القرآن أكثر من مائة لفظ معرب، وأشهر ما قيل فى ذلك أنها من أصول أعجمية إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظ العرب، فصارت عربية باستعمال العرب لها وجريها على لسانهم، ثم نزل القرآن وقد اشتهرت هذه الألفاظ واختلطت بكلام العرب فهى عربية بالاستعمال. هذا أشهر ما قيل فى هذه القضية[1].

قال جار الله الزمخشرى: (شبههم فى إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها. وفى تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما فى قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥] وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها فى العدو إذا رابها رائب ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب فى وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر وعدوها)[2].

ومقصود الزمخشرى واضح من غرض التشبيه : إنه تقبيح صورتهم وبيان سرعة إعراضهم عن التذكر بدون تدبر!

---

(١) تراجع الرسالة للشافعى صـ٤١ : ٥٣، والصاحبى لابن فارس صـ٤١ : ٤٧، والبرهان للزركشى جـ١ صـ٢٨٧ : ٢٩٠ . والإتقان للسيوطى جـ١ صـ١٣٥ : ١٤١، وأطوار الثقافة والفكر صـ٩٠ : ١٠٢ .

(٢) الكشاف جـ٤ صـ١٦٢ .

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ للإنكار والتعجيب من غرابة حالهم، حين ذكروا بالقرآن فأعرضوا والإعراض عن القرآن من وجهين:

أحدهما: الجحود والإنكار، والوجه الآخر: ترك العمل بما فيه[1].

قال الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ : (وقد كثر وصف النفرة وسرعة السير والهرب بالوحش من حمر أو بقر وحشى إذا أحس بما يرهبه ... وقد كثر ذلك فى شعر العرب فى الجاهلية والإسلام كما فى معلقة طرفة ومعلقة لبيد ومعلقة الحارث وفى أراجيز الحجاج ورؤبة ابنه وفى شعر ذى الرمة)[2].

فالقرآن يخاطب الناس من جنس ما اعتادته عقولهم .

وعقولهم مجمعة على شدة نفرة حمر الوحش وخوفها مما يفزعها، بدليل كثرة ذلك فى الشعر الجاهلى وغيره، وهم انصرفوا عن القرآن انصرافا يدعو للسخرية؛ لأنه لا عقل يؤيده، وهم أدركوا وأيقنوا بقوة هذا القرآن وأنه غالب وقاض على فسقهم وضلالهم فلم يشاءوا أن يقفوا أمامه ليتأملوه!

---

(١) يراجع تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧١٢٥، ونظم الدرر جـ٨ صـ٢٣٨، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣٢٩ .

خامسا: ذكر أهوال يوم القيامة :

من وجوه المناسبة بين السورتين أن الله سبحانه تحدث فيهما عما أعده للمجرمين المكذبين من صنوف العذاب في يوم القيامة، وذكر الله تعالى من أهوال هذا اليوم وشدائده ما يخوف به عباده. قال تعالى في سورة (المزمل): ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [الآيات ١٢، ١٣، ١٤] وقال فيها: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [الآيات: ١٧، ١٨].

وقال سبحانه في سورة (المدثر) : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [الآيات ٨، ٩، ١٠]، وقال فيها: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ [الآيات ٢٦: ٢٩] وقال: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [الآيات ٣٢: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عند الله أنواع كثيرة للانتقام، ولهذا ورد الأسلوب مؤكدا. وفي هذه الطريقة تهديد ووعيد للمكذبين بأنهم سيلاقون ما يضاد تنعمهم في الدنيا، وتنكير (أنكالا)،و(جحيما)،و(طعاما)،و(عذابا) لقصد التهويل والتعظيم فهي أشياء لا يقادر قدرها، ولا يعلم كنهها إلا الله عزوجل[1].

(١) يراجع روح المعاني جـ١٥ صـ١١٩، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧١.

وجئ بالماضى فى قولـه تعـالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ للدلالة على تحقق الوقوع، وكأن ذلك وقع بالفعل[1] ، إن القرآن يصور لنا حركة انهيار كبرى وزوالا مخيفا لهذا الكون فى يـوم القيامة ، إن الأرض والجبال ترتجفان بأعنف وأسـرع حركـة. وهذه الجبال القوية المتماسكة (تصير ككثبان الرمل بعدما كانـت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شئ إلا ذهـب حتى تصير الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا أى: واديـا، ولا أمتا، أى: رابية، ومعناه لا شئ ينخفض ولا شئ يرتفع)[2].

والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وراءه معان ومقاصد تثير أحاسيس النفس وتوقظ شـعورها. إنه يحتمل: الإنكار، والاستبعاد، والنفى ومعناه: كيف تحصـل منكم التقوى إذا كفرتم بيوم هذه أوصافه؟! إن المشكلة الحقيقية والطامـة الكبرى فى البشر أن كثيرا منهم لا يعمل ليوم القيامة، وهـذه الآيـة قريبة جدا من آية سورة (المدثر): ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الآية: ٥٣] إن تقوى الله لا يمكن أن تحصل فى قلب سها ولهـا، وانشـغل بالدنيا عن لقاء خالقه، إن الناس ينسون الآخرة ويفضـلون الـدنيا ويختارونها بحب وحرص شديدين. قال تعـالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

ويمكن أن يحمل المعنى على: كيـف تتقـون العـذاب إن كفرتم؟! والفرق بين التوجيهين واضح، فـالمعنى علـى الأول: كيف تحصل منكم التقوى إن كفرتم وجحـدتم يومـا ... فيومـا منصوب بكفرتم على معنى: جحدتم.

(١) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٤٣٧، ٤٣٨ .

والمعنى على التوجيه الثانى: كيف تتقون العذاب وتنجون أنفسكم إن كفرتم. فيوما على هذا مفعول لتتقون ويقدر مضاف تأويله عذاب يوم[١].

(وفى قوله سبحانه: ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ وتقديره تقدير المشكوك فى وجوده ما ينبه على أنه لا ينبغى أن يبقى مع إرسال هذا الرسول لأحد شبهة تبقيه فى الكفر فهو النور المبين)[٢].

ثم وصف الله ذلك اليوم بشدة الهول فى قوله : ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ والجعل فى الحقيقة ليس لليوم، بل فاعل ذلك هو الله تعالى، ففى الآية نسب جعل الولدان شيبا إلى اليوم، على طريقة المجاز العقلى بعلاقة الزمانية، حيث أسند الفعل إلى زمانه لوقوعه فيه، وفى هذا الوصف كناية عن شدة ذلك اليوم وكثرة الهموم والأحزان فيه، فهو يوم يشيب فيه الصغير من غير كبر، فهيبة هذا اليوم بحال لو كان فيه هناك صبى لشاب رأسه من الهيبة، وفيه كناية أيضا عن طول ذلك اليوم، وفى هذا التأويل الذى ذكره العلماء إشارة إلى أن الكناية لا تنافى المجاز العقلى كما ذكر الدسوقى[٣].

---

(١) تراجع هذه الوجوه فى الكشاف جـ٤ صـ١٥٤، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٨٦، ٧٠٨٧، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٧، وروح المعانى جـ١٥ صـ١٢١ .

(٢) روح المعانى جـ١٥ صـ١٢١ .

(٣) يراجع شروح التلخيص جـ١ صـ٢٥٣، والكشاف جـ٤ صـ١٥٤، ١٥٥، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٨٧ وما بعدها، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٧، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٥ .

ومن أهوال هذا اليوم أيضا ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ ومعلوم فى الاستعمال القرآنى أن (السماء) تؤنث وتذكر، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١] وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الإنشقاق : ١] وفى آية سورة (المزمل) التى معنا: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ وقد بين علماء اللغة أن الأكثر والأشهر فى الاستعمال هو التأنيث، حتى قال ابن منظور: والسماء التى تظل الأرض أنثى عند العرب؛ لأنها جمع سماءة ... والسماءة أصلها سماوة، وقال: كما تذكر السماء وإن كانت مؤنثة، وذكر الآية التى معنا، وقال الراغب الأصفهانى: السماء المقابل للأرض مؤنث وقد يذكر(١) .

وقد وردت كلمة (السماء) فى القرآن فى مائة وعشرين موقعا وهى واردة على التأنيث ـ فيما أعلم ـ إلا فى هذه الآية التى فى المزمل(٢).

وقد حاول المفسرون ذكر علة التذكير ـ هنا ـ وذكروا وجوها كثيرة كلها محتملة، وقال بها أئمة اللغة.

قال أبوعمرو بن العلاء وأبوعبيدة والكسائى والفراء: المراد بها السقف، وهو يذكر ويؤنث، وبهذا قال الجوهرى وابن برى وغيرهم، وقال أبوعلى الفارسى: هو من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر، يعنى الكلام من باب اسم الجنس الذى بينه وبين مفرده تاء التأنيث، وأن مفردها سماءة، واسم الجنس

---

(١) ينظر اللسان مادة: (سما) وتراجع المادة فى المفردات .

(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن صـ٣٦٢ وما بعدها ، ولما وصفها الله بالسقف المحفوظ أعاد عليها الضمير بالتأنيث ، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] .

يجوز فيه التذكير والتأنيث، وقال أبوعلى أيضا: ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع أى ذات إرضاع فجرى على طريقة النسب، والانفطار: التشقق والتصدع[1].

وأجاز بعضهم أن يكون (منفطر) صفة لخبر محذوف مقدر بمذكر والتقدير: السماء شيء منفطر، وعلق الألوسى على هذا الوجه بقوله: (والنكتة فيه التنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشئ) [2].

وذكر الطاهر بن عاشور علة أخرى فقال: (ولعل العدول فى الآية عن الاستعمال الشائع فى الكلام الفصيح فى إجراء السماء على التأنيث إلى التذكير إيثارا لتخفيف الوصف لأنه لما جئ به بصيغة منفعل بحرفى زيادة وهما: الميم والنون كانت الكلمة معرضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث وهو هاء التأنيث فيحصل فيها ثقل يجنبه الكلام البالغ غاية الفصاحة، ألا ترى أنها لم تجر على التذكير فى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾: إذ ليس فى الفعل إلا حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل؛ لأنها ساقطة فى حالة الوصل فجاءت بعدها تاء التأنيث) [3] .

هذه هى أشهر الآراء التى ذكرها المفسرون، ولعل أقواها فيما أرى ـ وسبحان العليم بمراده ـ أن التذكر ورد هنا،

---

(١) يراجع البحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٧، وجرى كثير من هذا فى الكشاف جـ٤ صـ١٥٥ .

(٢) روح المعانى جـ١٥ صـ١٢٢، ويراجع هذا التقدير فى الكشاف جـ٤ صـ١٥٥ .

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٧ .

لتأويلها بالسقف الذى صرح الله به فى قولـــه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأن انفطار هذا الســقف دليــل واضح على هول هذا اليوم وشدته.

ثم قال تعالى فى سورة (المدثر) : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وعير (بإذا) لتحقق الوقوع. والناقور هو الصور الذى ينفخ فيه وعبــر ــ هنــا ــ بــالنقر والناقور؛ لبيان الشدة التى تناسب مقام الإنذار والصوت الــذى ينقر الأذن أشد وقعا من الصوت الذى تسمعه الأذن[1].

فالله وصف هذا اليوم بالعسر والشدة فى قوله: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ثم أكد تلك الشدة والعسر بقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وهو تأكيد للمعنــى بمرادفه، كما يقال: عاجلا غير آجل[2].

قال الزمخشرى: (فإن قلت: فما فائدة قولــه: ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ و﴿عَسِيرٌ ﴾ مغن عنه؟ قلت: لما قال ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فقصر العسر عليهم قال: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كمــا يكــون على المؤمنين يسيرا هينا ليجمع بين وعيد الكــافرين وزيــادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم) [3].

---

(١) يراجع تفسير القرطبى جـــ١٠ صــــ٧١٠٧، وروح المعــانى جــ١٥ صــ١٣٤، وفى ظلال القرآن جــ٦ صــ٣٧٥٥ .

(٢) يراجع التحرير والتنوير جــ٢٩ صــ٣٠١ .

(٣) الكشاف جــ٤ صــ١٥٧ .

بعد ذلك جاء التهديد والوعيد بسقر في قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، وسقر كما ذكر الجواليقى والسيوطى وغيرهما اسم معرب، معناه: النار، وجهنم بلغة الفرس[1].

وقلنا من قبل: إن العرب استعملت هذه الألفاظ، وجرت فى لسانها، فصار اللفظ عربيا بالاستعمال، وإن لم يكن عربيا بالوضع وهذا لم يكن عجيبا عند العرب بدليل أن الكفار لم ينكروا هذه الألفاظ حين سماعهم القرآن الكريم .

والاستفهام فى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ للتهويل وتعظيم شأنها وتفظيع حالها[2].

ثم فصل الله تعالى أحوالها زيادة فى التخويف بقوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ إنها لا تبقى على من ألقى فيها، ولا تزر غاية من العذاب إلا أوصلته إليه، ومن أوصافها أنها ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ إنها مغيرة للبشرات محرقة للجلود مسودة لها، والبشر جمع بشرة، وقيل: لواحة بناء مبالغة من لاح إذا ظهر، فهى تظهر للناس أى البشر من مسافة خمسمائة عام، وذلك من عظمها وهولها[3].

---

(١) يراجع المعرب للجواليقى مادة: (سقر) وتراجع المادة فى المهذب للسيوطى، واللسان ويراجع أطوار الثقافة والفكر صـ١٠٠، قال: رفائيل نخلة اليسوعى: إن معناها جهنم بالآرامية. ينظر هامش المهذب للسيوطى صـ٥٨ .

(٢) يراجع البحر المحيط جـ٨ صـ٣٦٧، وروح المعانى جـ١٥ صـ١٣٩، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣١١ وما بعدها .

(٣) تراجع المراجع السابقة الصفحات نفسها .

وحذف مفعول: (تبقى) لقصد العموم، أى لا تبقى منهم أحدا، أو لا تبقى من أجزائهم شيئا، وكذلك يقال فى (تذر) ويضاف مع ذلك مراعاة فواصل السورة[1].

ثم أقسم الله بعد ذلك بثلاثة أشياء هى: (القمر) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾. ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ والجواب: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾.

ولله سبحانه أن يقسم بما شاء على ما شاء، ومعلوم أن القسم فيه تعظيم المقسم به، وتأكيد للمقسم عليه ... إلى آخر ما فى القسم من أغراض، يقول أبوحيان: (أقسم الله بهذه الأشياء تشريفا لها وتنبيها على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها)[2].

لكن ما سر اختيار هذه الثلاثة هنا؟ لماذا القمر بالذات؟ ولماذا وقت إدبار الليل وإسفار الصبح؟

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ : (ومشاهد القمر، والليل حين يدبر والصبح حين يسفر مشاهد موحية بذاتها تقول للعقل البشرى أشياء كثيرة ... وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسرى وحين يغيب ثم لا يعى عن القمر شيئا ... وإن وقفة فى نور القمر أحيانا لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور ... والله الذى خلق القلب البشرى يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب فى بعض الأحايين وكأنها تخلقه من جديد)[3].

---

(١) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣١٢ .

(٢) البحر المحيط جـ٨ صـ٣٦٩ .

(٣) فى ظلال القرآن جـ٦ صـ٣٧٦٠ ، وبمثل ما قال عن القمر قال ـ رحمه الله ـ عن الليل المدبر والصبح المسفر وبين أن هذ

ولنا أن نطيل التأمل فى اختيار هذه الثلاثة الأشياء بالذات. ألها علاقة بقيام الليل ومعرفة أحواله، وتقدير أوقاته؟ أم أن هذا الاختيار لهذه الأشياء لأنها محببة للنفس دالة على روعة هـذه الأوقات كما ذكر المرحوم سيد قطب؟ أو يكون وراء ذلك دليـل على ظهور نور الإسلام بعد أن طال زمن الشرك؟

إن الليل يدبر بظلامه ويأتى الصبح بنوره، كذلك حال هـذا الدين المشرق الذى وعد الله بإتمامه وظهوره.

وإذا كان القمر بنوره وتلك الأوقات بإشراق النـور فيهـا مريحة للنفس وموقظة للشعور فهكذا أمر هذا الدين، إنه يبعـث فى القلب نورا.

إن الله يقسم بهذا كله على أن جهنم إحدى الآيات العظيمة التى تنبه الغافلين وتوقظ الراقدين، فهذه الجملة جواب للقسـم، أعنى جملة: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ و(الكبر) جمع الكبرى[1].

الانتقال يجعل القلب البشرى أكثر صلاحية لاستقبال النـور الـذى يشرق فى الضمائر مع النور الذى يشرق فى النواظر.

(١) يراجع الكشاف جـ٤صـ١٦١،والبحر المحيط جـ٨صـ٣٧٠.

سادسا: الأمر بالصلاة والزكاة وأنواع الخير والتحذير من ترك ذلك:

من وجوه التشابه بين السورتين أن الله ذكر فيهما الصلاة والزكاة وغير ذلك من أنواع البر، قال تعالى فى سورة المزمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [الآيات ١: ٤] وقال فى آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ٢٠].

وقال فى سورة (المدثر): ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [الآيات ٣٨ : ٤٨].

ومما يسترعى الانتباه فى نظم الآيات أن الأمر فى أول سورة (المزمل) بـ(قم) كان لرسول الله (ﷺ) خاصة، ثم ورد فى آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ... وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ فنصت الآية على طائفة كانت تقوم مع رسول الله (ﷺ) ولم يؤمروا بذلك فى أول السورة، كما أن نظم الآية الأخيرة فى سورة (المزمل) ورد على طريقة عجيبة فى النظم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ

ٱلَّيۡلِ ...وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ ولم يرد فيها مثلا: إن ربك يعلم أنكم تقومون، ثم جاء ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ فكان خطابا للجميع حتى آخر السورة.

وإذا كانت آيات سورة (المزمل) فى مدح رسول الله (ﷺ) فى الالتزام بأمر ربه ومدح صحابته معه فإن آيات سورة (المدثر) فيها توبيخ وزجر للمجرمين الذين خالفوا عن أمر الله ولعل هذه الطريقة فى نظم سورة (المدثر) تكون متوافقة مع مطلع السورة الذى جاء فيه الإنذار وتخويف الناس ونص فيه على عسر يوم القيامة حين ينقر فى الناقور.

ونمضى الآن فى ذكر خصائص تلك الآيات، ونرجو أن يكون فيما نذكره جواب لما يقع فى عقل المتأمل ويسترعى انتباهه.

ذكر الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ فى الرسالة: (أن الله أنزل فرضا فى الصلاة قبل فرض الصلوات الخمس فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ ، ثم نسخ هذا فى السورة معه فقال: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ فكان بينا فى كتاب الله نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه بقول الله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ فاحتمل قول الله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ معنيين: أحدهما: أن يكون فرضا ثابتا؛ لأنه أزيل به فرض غيره، والآخر: أن يكون فرضا منسوخا أزيل بغيره، كما أزيل به غيره، فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله (ﷺ) تدل على ألا واجب من

الصلاة إلا الخمس، فصرنا إلى أن الواجب الخمس، وأن ما سواها من واجب من صلاة قبلها منسوخ بها استدلالا بقول الله: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] وأنها ناسخة لقيام الليل ونصفه وثلثه وما تيسر. ولسنا نحب لأحد ترك أن يتهجد بما يسره الله عليه من كتابه، مصليا به، وكيف ما أكثر فهو أحب إلينا) [(١)].

ومعلوم عند أئمة التفسير أن المراد بقيام الليل، الصلاة. وأن المراد بقراءة ما تيسر منه الصلاة أيضا، وفى نص الشافعي السابق (مصليا به) ، وهناك من حمل قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ على القراءة الحقيقية للقرآن وحمل الكلام على الحقيقة. لكن الأكثر من المفسرين على إرادة المجاز، قال الزمخشري: (وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها بعض أركانها كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود يريد : فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأول ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس) [(٢)].

---

(١) الرسالة صـ١١٣ ــ ١١٦، وذكر الشافعي فى هذا الموضع حديث الأعرابي الذى جاء يسأل النبي (ﷺ) عن الإسلام فذكر له رسول الله (ﷺ) خمس صلوات فى اليوم والليلة ليس عليه غيرها إلا أن يطوع إلى آخر ما قاله الرسول (ﷺ) فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال الرسول (ﷺ) أفلح إن صدق. يراجع الحديث فى الرسالة صـ١١٦، وفتح الباري جـ١ صـ١٣٠، ١٣١ .

(٢) الكشاف جـ٤ صـ١٥٥، وتفسير القرطبي جـ١٠ صـ٧٠٩١. والبحر المحيط جـ٨صـ٣٥٩،وروح المعاني جـ١٥ صـ١٢٣ .

وأطلق القيام على الصلاة وكذلك عبر عنها بقـراءة مـا تيسر من القرآن، لكونهما أظهر أركانها، ومعلوم عند البلاغيين أن علاقة الجزئية في المجاز المرسل لا تصح فـي إطـلاق أي جزء على الكل، وإنما يطلق اسم الجزء الذي له مزيد اختصاص بالكل بحيث يتوقف تحقق الكل بوصفه الخاص عليه[1].

وورد الأسلوب مؤكـدا فـي قولـه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ... ﴾ للاهتمام بهذا الخبر العظيم الشأن، ويشعر هذا الكلام بالثناء من الله عزوجل على نبيه (ﷺ) لوفائه بحق القيام الذي أمره الله سبحانه بـه وإيثار المضارع في (يعلم) ،و(تقوم) للدلالة على أن رسول الله (ﷺ) بعين ربه وأنه أهل لهذه العناية والملاحظة الربانية وهذا قريب مـن قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وقوله: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] والتعبير بالمضارع في : (تقوم) للدلالة على تجدد القيام واستمراره مـن رسول الله (ﷺ) طاعة لأمر خالقه.

ومن لطائف الآية أن الله ذكر رسوله أولا بالخطـاب فـي ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ ثم عطف عليه ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ ولم يـأت يعلم أنكم تقومون مثلا، وذلك لبيان الفرق الدقيق بين قيام رسول الله (ﷺ) وقيام الطائفة التي معه، وأن قيامه قيام إمام المتقـين وسيد المخلصين[2].

وطال الحديث حول فرضية القيام في أول السـورة أكـان الفرض خاصا برسول الله (ﷺ) ؟ أو كان له ولمن آمـن معـه؟

---

(١) يراجع شروح التلخيص جـ٤ صـ٣٥ ـ ٣٧ .
(٢) يراجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .

ولعل أشهر ما قيل فى ذلك أن القيام كان فرضا عليه (ﷺ) خاصة وأن قيام من قاموا معه ممن آمن إنما كان تأسيا برسول الله (ﷺ) وأقرهم رسول الله على ذلك، ثم نزل التخفيف على الجميع بعد ذلك ، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ ثناء جميلا عمن قاموا مع رسول الله (ﷺ)(١).

وتقديم المسند إليه فى ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ للدلالة على الاختصاص، أى: لا تقدرون على ذلك بل الله وحده هو العليم الخبير بتلك الأوقات(٢).

وبين الله تعالى الحكمة فى نسخ القيام فى قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفى هذا دليل على قيمة العمل والكسب الحلال، والسفر للمعايش وطلب الأرزاق وأن هذا كله لا يقل عن الجهاد فى سبيل الله حيث قرن الله بينهما وسوى بينهما(٣).

وكرر القرآن ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ للتوكيد وفى آخر الآية أمر الله سبحانه بعمودى الإسلام البدنى والمالى وهما: الصلاة والزكاة، ثم أمر أمرا آخر فى قوله : ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ والعطف يشعر بالتغاير، فإيتاء الزكاة أمر بالواجب، ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ ﴾ أمر بالصدقات التى يتطوع بها .

---

(١) يراجع البحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٨، وروح المعانى جـ١٥ صـ١٢٤، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٥، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٨

(٣) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٥ .

كل هذا يجد العبد ثوابه عند الله، إنه الخير الذى ينفع صاحبه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] (١).

وفى هذا الجو المشحون بالطاعة يأمر الله رسوله وعباده المؤمنين بالإكثار من الخير، والاستغفار، لأن الله غفور رحيم، فعلى عباده أن يلوذوا ببابه ويطلبوا رحمته وغفرانه .

وفى سورة (المدثر) يبين الله سبحانه أن ترك الصلاة وترك إعطاء المسكين حقه، والخوض فى الباطل، كل هذا يؤدى إلى هلاك العبد والحكم عليه بالعذاب الأليم فى الآخرة ، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ فكل نفس مرتهنة ومؤاخذة بعملها ومحبوسة عليه لا تنفك من الحساب والعقاب، إلا أصحاب اليمين فإنهم نالوا الفوز بطاعتهم لله، إنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ والتنكير فى جنات للتعظيم والتفخيم، إنها جنات فوق وصف الواصفين وفيها ما لم يخطر على قلوب العالمين .

إنهم (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا أو يسألون ـ عنهم ـ غيرهم ، فإذا عرفوا بنهايتهم، قالوا لهم، أو قالت لهم الملائكة ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ وهذا سؤال توبيخ وتحقير وتحسير، وإلا فهم عالمون أن الله العادل لم يكن ليدخلهم (سقر) بدون استحقاق لهذا العذاب(٢) .

ثم يأتى جوابهم عن استحقاقهم (سقر) بأنهم لم يكونوا من جماعة المؤمنين، فلم يكونوا من أهل الصلاة، ولم يعطوا

---

(١) يراجع البحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٩ .
(٢) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٦١، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٧١

المسكين ما يجب له، وأنهم كانوا فى لهو دائم فى جماعة اشتغلت بالباطل وعاشت من أجله وماتت عليه .

وكذبوا بلقاء الله فى يوم الجزاء العظيم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ . إنهم ظلوا على تلك الحالة حتى جاءهم (اليقين) وهو الموت عند جمهور المفسرين، للتصريح به فى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

والتعبير بالمضارع فى (نخوض)،و(نكذب) يدل على أن هذا كان حالهم وظلوا عليه حتى أتاهم الموت، فالآية تسجل عليهم إجرامهم المتجدد الذى لم يتوقف، والتعبير بـ(حتى) يوحى بأن (اليقين) هو الذى أنهى إجرامهم(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ ليس معناه أن هناك من يشفع لهم ولا يقبل الله شفاعته، وإنما المعنى: نفى الشفاعة فانتفى النفع، أى: لا شفاعة فلا نفع، ففى الآية (نفى الشئ بإيجابه) وهو من أغوار العربية وخفى أسرارها، وقد لمح هذا فى الآية أبوحيان الأندلسى فى البحر المحيط، حيث ذكر أنه من باب: (على لاحب لا يهتدى بمناره)، أى لا منار له فيهتدى به .

وفى هذه الآية التى نفت الشفاعة عنهم دليل على وجودها يوم القيامة وأنها ينتفع بها عصاة المؤمنين(٢).

---

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٦٢، وتفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧١٢٤، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٧١، وروح المعانى جـ١٥ صـ١٤٧، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٣٢٨ .

(٢) يراجع البحر المحيط جـ٨ صـ٣٧١، ٣٧٢، وروح المعانى جـ١٥ صـ١٤٨ .

سابعا: التأكيد على أن القرآن تذكرة:

من وجوه التشابه بين السورتين أن الله تعالى أكد فيهما أن القرآن (تذكرة) قال سبحانه في سورة (المزمل): ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الآية: ١٩] وقال في سورة (المدثر) : ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ [الآية: ٤٩] وقال فيها أيضا: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ [الآيات ٥٢ : ٥٤] .

والتذكرة كما قال الراغب: ما يتذكر به الشئ وهو أعم من الدلالة والأمارة، فهي الموعظة والاعتبار، لأنها تذكر الغافل ليعتبر من سوء العواقب، وجاء وصف القرآن بهذا بعد آيات تقرع السمع وتثير الخوف وتنطق بالوعيد الشديد في السورتين(١) .

وجاء الكلام مؤكدا في السورتين (لأن المواجهين به ابتداء هم منكرون كون القرآن تذكرة وهدى فإنهم كذبوا بأنه من عند الله ووسموه بالسحر وبالأساطير) (٢) .

وأشير بـ(هذه) في سورة (المزمل) لأن المقصود السورة أو الآيات المنطوية على القوارع، وجاء الضمير مذكرا في سورة (المدثر) : ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ لأن المقصود القرآن الكريم، وهو معلوم من المقام ، ونكر "تذكرة" في المواقع المذكورة

---

(١) تراجع المادة في المفردات واللسان ، ويراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٥، وروح المعاني جـ١٥ صـ١٢٢، وصـ١٤٨ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٧ .

للتعظيم، كما أن الإخبار بها عن القرآن أو الآيات مبالغة، وأى مبالغة، فهو تذكرة كافية مبهم أمرها فى الكفاية[1].

ومفعول شاء محذوف فى المواضع المذكورة؛ للعلم به. ويقدر من جنس الجواب، وقد أشار إلى بلاغة هذه الطريقة الشيخ عبدالقاهر الجرجانى فى (دلائل الإعجاز) وأشاد بها أيما إشادة وذلك فى قوله: (اعلم أن ههنا بابا من الإضمار والحذف يسمى (الإضمار على شريطة التفسير) .. وفيه إذا أنت طلبت الشئ من معدنه من دقيق الصنعة ومن جليل الفائدة ما لا تجده إلا فى كلام الفحول ... وذلك أن فى البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك. ومجئ المشيئة بعد "لو" وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداه إلى شئ كثير شائع كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] و﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] والتقدير فى ذلك كله على ما ذكرت. فالأصل: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم إلا أن البلاغة فى أن يجاء به كذلك محذوفا)[2].

والتقدير فى الآيات: فمن شاء أن يتخذ سبيلا اتخذه إلى ربه، أو فمن شاء اتخاذ سبيل إلى ربه اتخذ إلى ربه سبيلا. ويقدر فى سورة (المدثر) فمن شاء أن يذكره ذكره فجواب

---

(١) يراجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٥، ١٦٢، ويراجع تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٧٠٨٨، ٧١٢٧، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٨، ٣٧٢، وروح المعانى جـ١٥ صـ١٢٢، ١٤٩، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ٢٧٧، ٣٣٢ .

(٢) دلائل الإعجاز صـ١٦٣، ١٦٤ .

الشرط يدل على المحذوف فيكون جمال الحذف في الإيجاز والبيان بعد الإبهام، ودقة الصنعة والحبكة الأسلوبية(١).

ويبقى في هذا الأسلوب جماله وروعته ففيه الإسراع والحث على المقصود، فالفرق واضح بين أن نقول: فمن شاء أن يتخذ سبيل ربه اتخذ إلى ربه سبيلا وبين أن نقرأ قول الله : ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إن في التعبير القرآني شيئا لا يمكن أن يكون مع ذكر المحذوف.

فالقرآن في تعبيره يحث الخلق على سبيل الله ويسرع لهم في التفاؤل، فهو يدل على أن المرء إذا أحسن النية وخلصت مشيئته لله فهو قد اتخذ السبيل بالفعل ولك أن تقدر ذلك في كل فعل حذف مفعوله في القرآن إذا كان فعل المشيئة ثم تتأمل المعنى والأسلوب إنه دون ما قدرته ولله در الإمام عبدالقاهر حين قال: (إلا أن البلاغة في أن يجاء به كذلك محذوفا).

ما أعظم العربية ! وما أكثر أسرارها !!

اللهم وفق المشتغلين بها واهدهم لإدراك ما خفي من أسرارها.

إن المتأمل في بلاغة العرب يزداد حبه لها واعترافه بروعتها كلما أحسن التأمل فيها، وأتذكر قول الشافعي - رحمه الله - وهو حجة في اللغة: (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي)(٢).

---

(١) يراجع البحر المحيط جـ٨ صـ٣٥٨، وروح المعاني جـ١٥ صـ١٢٢، ١٤٩ .

(٢) الرسالة صـ٤٢ .

فكيف إذا تعلق الأمر ببلاغة القرآن؟! من ذا الذى يجرؤ أن يخوض هذا الغمار، ويدلج فى هذا البحر اللجى إذا لـم تحالفـه عناية القوى؟ اللهم ارزقنا فتحا وفهما فى كتابك، حتى تتكشـف لنا أسراره، وتلوح لنا أنواره اللهم إن هذا عمل المقصر، وجهد المقل، فالحقه بأعمال من أخلصوا النوايـا، وصـاحبتهم منـك العناية، وتقبله بقبول حسن ٠

الخاتمة

الحمد لله الذى من ويسر، ووهب وقدر أن نعيش مع هـذا البحث المبارك تلك الأوقات الطيبة فى صحبة كتاب الله المجيـد، وفى ختام هذه الرحلة المباركة نجمل أبرز النتائج التـى أمكـن التوصل إليها وهى:

١ - من وجوه التشابه بين السورتين ما يلى:

- النداء بالوصف الخاص وتعقيبه بالأمر.
- الأمر بالصبر على أذى المكذبين.
- تهديد المكذبين بألوان العذاب الأليم.
- وصف عصيانهم وإعراضهم.
- ذكر أهوال يوم القيامة.
- الأمر بالصلاة والزكاة وأنواع الخيـر والتحـذير مـن تركها.
- التأكيد على أن القرآن تذكرة.

٢ - (المزمل) و(المدثر) وصفان للنبـى (ﷺ) باعتبـار حـال الرسالة فهما دليلان عليها، ولم يصرح بالنبى والرسول فى الموقعين لأسباب ذكرناها فى البحث.

٣ - كثرة التهديد والتخويف والوعيد فـى السـورتين كعـادة القرآن المكى، ومناسبة ذلك لحال كفار مكة الذين أسـرفوا فى العناد.

٤ - التشابه فى الصورة بين إرسال النبى محمد (ﷺ) فى كفار مكة وإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون ومناسبة ذلك ودلالته.

٥ - من إعجاز القرآن أنه أخبر عن الغيوب فـــى الســـورتين وتحقق ذلك كما أخبر القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ وقولـــه: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ﴾ وهـــذا كمـــا قـــال العلماء: صادر عن عزة الربوبية ورفعة الألوهية ودال على صاحبه سبحانه .

٦ - القرآن يدعو للفكر ويحث عليه، ولكن المشكلة حين يكون الفكر مغلوطا فيعلنه صاحبه فى الناس فيضلهم ويدمرهم .

٧ - كمال الصورة القرآنية ودقتها فى وصف الوليد بن المغيرة والشبه الخفى بينه وبين فرعون مصر .

٨ - وقوع المعرب فى القرآن وعدم اعتراض الكفار على ذلك؛ لأنه جرى فى لسان العرب قبل نزول القرآن .

هذه أبرز النتائج التى أمكن التوصل إليها، وهنـــاك نتـــائج أخرى مدونة فى مواقعها من البحث .

ولست بعد هذا الجهد أدعى الكمـــال لبحثـــى ولا التوفيـــق لنفسى فحسبى أنه كان نية قديمة وعزما خالصا، شـــاء الله أن يهيئ أسبابه ليظهر بين يدى عباده .

اللهم تقبله بأحسن القبول إنك أكرم معط وخيـــر مســـئول والصلاة والسلام على سيدنا محمد أعلم الناس بمراد الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور

على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد فى كلية

اللغة العربية بالزقازيق

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم ٠

٢ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبع دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ لبنان ٠

٣ - أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام لعلى الجندى وآخرين . طبع الأنجلو المصرية طبعة أولى ١٩٥٩م٠

٤ - إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق/ السيد أحمد صقر ط الخامسة . دار المعارف٠

٥ - البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى تحقيق الشيخ/ عادل أحمد عبدالموجود وآخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٩٩٣م٠

٦ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم طبع دار التراث٠

٧ - بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادى طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية طبعة ثالثة ١٤١٦هـ٠

٨ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م٠

٩ - التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ/ سيد قطب ـ طبع دار المعارف٠

١٠ - تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير ط دار التراث ٠

١١ - تفسير القرطبى طبع دار الغد العربى طبعة أولى ١٩٨٨م٠

١٢ - دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م٠

١٣ - الرسالة للإمام الشافعى تحقيق/ أحمد محمد شاكر ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ٠

١٤ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى تصحيح وضبط/ على عبدالبارى ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ٠

١٥ - شرح أحاديث من صحيح البخارى للدكتور محمد أبوموسى طبع مكتبة وهبة٠

١٦ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون ط دار المعارف ط رابعة سنة ١٩٨٠م٠

١٧ - شروح التلخيص طبع المطبعة الأميرية ببولاق طبعة أولى ١٣١٨هـ ٠

١٨ - صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان طبعة أولى سنة ١٩٢٩م٠

١٩ - عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للشهاب الخفاجى طبع دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان٠
٢٠ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق / محب الدين الخطيب وآخرين ط المكتبة السلفية طبعة ثالثة ١٤٠٧هـ ٠
٢١ - الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى تحقيق/ حسام الدين القدسى طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٨١م٠
٢٢ - فى ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب ط دار الشروق الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦م٠
٢٣ - الكشاف للإمام الزمخشرى ط دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان٠
٢٤ - لسان العرب لابن منظور المصرى طبع دار المعارف٠
٢٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبدالباقى ط دار الحديث ١٩٨٧م٠
٢٦ - المعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى تحقيق/ أحمد محمد شاكر طبع دار الكتب طبعة ثانية ١٣٨٩هـ٠
٢٧ - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى طبع دار الغد العربى طبعة أولى ١٩٩١م٠
٢٨ - المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ط دار التحرير٠

٢٩ – المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب لجلال الدين السيوطى تحقيق د/ إبراهيم محمد أبوسكين مطبعة الأمانة ١٤٠٠هـ.

٣٠ – نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ طبعة ثالثة ١٤٢٧هـ.